تأثير جلال الدين الرومي المولوي في شعر الشيخ البهائي العربي والفارسي

أ. د. دلال عبّاس*

الملخّص

قرونٌ عديدةٌ مضتْ وانقضتْ ولا يزال المولويّ مالئ الدنيا وشاغلَ العارفين الذائقين الألمَ الوجوديّ، السالكين، الباحثين عن الحقيقة، يستقصون الهدايةَ ويتوخّون الكمال طيلةَ القرون. لقد صار المولويُّ بعدَ أنْ ألقى ضَرمةً في القلوب المحروقة ثريّا في سماء الأدب العرفانيّ، واصفًا نفسَه أنّه "صيقلُ الأرواح". لم يبقَ تأثيرُ جلال الدين الروميّ محصورًا في المنزلة الرفيعة التي احتلّها في الأدب الفارسيّ، وإنّما نال منزلةً كبيرةً في الآدابِ والحضارةِ الإسلاميّةِ عامّةً. ومن الذين تأثّروا بشعره العرفانيّ الشيخ البهائيّ [بهاء الدين العامليّ] في بعض شعرِه العربيّ والفارسيّ ...

يهدف هذا البحث إلى الإجابة عن هذا السؤال المحوريّ، وما يتفرّع عنه من أسئلةٍ فرعيّة: ما هي نقاط الالتقاء بين المولوي والبهائيّ بالنسبة إلى موضوع التصوّف والعرفان بمعنى معرفة الله الحقّ المتعالي، هذه المعرفة التي لا تُحصّل إلّا من طريق تصفيةِ الباطن، وتجليةِ السرّ، وتحليةِ الروح، كما يعتقد به السالكون الذين يطوون طرقَ الكمال.

الكلمات المفتاحيّة: *البهائي، المولوي، التصوف والعرفان، العشق الإلهي، التصوف الإيجابي والتصوف السلبي، المجاهدة.*

* أستاذة الأدب المقارن في قسم الدراسات العليا في الجامعة اللبنانيّة. dalal.abbas@gmail.com

التصوّف والعرفان بمنظار المولوي(١) والبهائي(٢)

التمهيد

قبل الإجابة عن السؤال الذي طرحناه من المفيد أن نجيب عن التساؤل حول نقطة البدء للتصوّف الإسلامي بمعناه العام؛ هل تعاليمه برمّتها نشأت من الإسلام أو كما يقول علي بن عثمان الهجويري في "كشف المحجوب": إنّ جذوره تنحدر من فرضيَّات وأعمال زهديّة لأصحابِ الصفّة، أو كما يُقال: أنّ مبادئ الاعتقاد في المسيحيّة كالرهبانيّة والمحبّة والسلام الكامل قد أثّرت في نشوء التصوّف، أو أنّه تأثّر بالآراء العرفانيّة في البوذيّة والهندوسيّة وبالفلسفة الأفلاطونيّة المُحدَثة التي تتّسم بالعرفان الحادّ أو معتقدات الأديان الإيرانيّة القديمة، فأيًّا كان المنشأ الأصلي للتصوّف الإسلامي فهو مختلفٌ عن التصوّف الذي ظهر في العصر الإسلاميّ، ونضج متدرّجا من بداية الإسلام، وتبدّل من زهدٍ فرديّ، وتعبُّد شخصيٍّ إلى مدرسةٍ واسعةٍ ذاتِ شُعبٍ متعدِّدة مصحوبةٍ بآدابٍ وتقاليدَ مختلفةٍ وأحيانًا متناقضة. لقد نشأ في مجرى هذا التطوّر تصوُّفٌ يعتمدُ التزهُّدَ والعباداتِ المستمرَّةَ والإقبالَ على التوبة والتخلي عن العلائق المادّيّة والرياضات الشاقّة، وهذه مدرسة أويس القرنيّ (المتوفّى سنة ٣٧هـ) والحسن البصريّ (٢١-١١٠هـ) وسواهما؛ كما نشأ التصوّف المتسم بالعشق الذي يرتكز على العشق الروحاني الحقيقي وهي المدرسة التي ينتمي إليها المولوي.

أين يلتقي المولوي والبهائي؟

يلتقي المولوي والشيخ البهائي في التصوّف المتّسم بالعشق ومدرسة العرفان، منطلقَين من الصفات المنبثقة عن العشق الحقيقيّ ومحبّةِ الله المتمثّلةِ بالزهد والورع والصبر والاستقامة والتوكّل، والرضا والتسليم للمشيئة الإلهيّة والفقر والفناء في الله، والتوفيق بين الحقيقة والطريقة، وذم االتصوّف السلبيّ.

فالشريعة عند مولانا نورٌ يُضيء جادَّة الطريقة، وينطوي مصباحُها في مشكاة النبوّة. وهو في رؤيته الكونيّة للعرفان يُعرِضُ عن التصوّف المتّسم بالزهد المتطرّف،

فهو يُخالف المتصوّفين الذين يختارون الوحدة والتخلي عن الناس بغية الحصول على سكينة توفّر لهم فرصةَ العبادات الاستثنائيّة المرهقة، ونراه يتّجه اتجاهًا اجتماعيًّا، ويرغب في موافقةِ الناس واصطحاب الصالحين ومجاراة الأصدقاء الروحانيّين، كما يُخالف الرهبانيّة، وهو يُشير إلى هذا الأمر في كتابه المسمّى " فيه ما فيه" (فروزانفر، فيه ما فيه، ط٢، طهران ١٣٦٢ش، ص٢٤٣).

إنّ الشاعرين يلتقيان في العرفان والتصوّف المتّسم بالعشق ، والذي يدلّ على عشقٍ ينبعث من جمال الذاتِ الأقدس، العشقُ الذي إن امتاز به الإنسان يصبحُ في ظلّه أفضلَ الكائنات، وبه يتطهّر من الرذائل الخُلُقيّة أو بتعبير المولوي: من الطمع والعيوب والعلل والكبرياء:

هر که را جامه ز عشقی چاک شد او از حرص و عیب کلی پاک شد
شاد باش ای عشق سودای ما ای طبیب جمله علتهای ما
ای دوای نخوت و ناموس ما ای تو افلاطون و جالینوس ما
جسم خاک از عشق بر افلاک شد کوه در رقص آمد وچالاک شد
عشق جان طور آمد عاشقا طور مست و«خرّ موسی صعِقا»

[كلّ من مزّق من شدّةِ العشقِ رداءه، تطهّرَ نهائيًا من العَيبِ والجشع
فلْتُفَرّج أيُّها العِشقُ الطيّبُ همّنا؛ يا طبيبَ أمراضِنا كلّها
يا دواءَ كِبريائنا وشرفِنا؛ يا أفلاطونَنا وجالينوسَنا
من شدّةِ العشقِ حلّق الجسمُ الترابيُّ فوق الأفلاك؛ رقصَ الجبلُ ودُكّتْ أركانه
المحبوبُ تجلّى وجبلُ الطُور صار عاشقًا؛ سكِرَ الطُّورُ وخرّ موسى صَعِقًا]

بين التصوّف والفِقه في حياة البهائي وآرائه

نرى مهمًّا هنا أن نشير إلى العلاقة بين التصوّف والفقه في حياة الشيخ البهائي العمليّة وفي آرائه النظريّة؛ فهو على الرغم من عشرات الكتب التي ألفها، ومن ممارسته التعليم طوال حياته، ومن نشاطه البارز والفعّال، كان أميَلَ إلى الزهد في الدنيا والتزام الصّمت، والبعد عن التماس العطاء من غير الله عزّوجلّ، هذا الزّهد في الحياة الذي يظهر واضحًا جليًّا، في تشجيعه النفوس على التخلّص من ربقة

المادة، كما يتضّح من نَفَسِهِ العرفانيّ الذي ظهر في سوانحه، وفي شعره العرفاني بالفارسيّة، وفي إكثاره من الحديث عن المتصوّفة وأخبارهم في كتابه "الكشكول"، كما أنه يُكثر، في هذا الكتاب، وفي مثنوياته الشعرية، وفي قصّته النثرية "موش وگربه" [القط والفأر]، من التحذير من الدنيا والإقبال عليها، كما يُكثر من الترغيب بالآخرة والميل إليها، وينصح الإنسان بأن لا يطلب الدنيا للتمتّع بلذاتها، بل أن يطلبَها لصالحٍ يرجو إعانته أو طالحٍ يخاف إهانته (بهاء الدين العاملي، الكشكول، ط. أعلمي، ج١، ص ١٩٨ و٢١٠).

لم يبتعد بهاء الدين العاملي، في تصوُّفه، عن الأساس النظري للتصوّف، بوصفه حركة نفسيّة أو روحيّة، فهو يبدأ من فكرة الوصول إلى المعرفة، من طريق "الكشف" أو "الإشراق" أو "الحدس"، والوسيلة العمليّة لذلك هي "مجاهدة النفس" وكبح شهواتها. والعارف، في نظر البهائي، هو الذي يصل إلى منبع الحقيقة بالمجاهدة، من طريق تصفية الباطن للوصول إلى الحقيقةِ المطلقة (السّر الأزلي)، و"الشيخ هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة، البالغُ إلى حدّ التكتّم فيها لعلمه بآفات النفوس وأمراضها وأدوائها، ومعرفته بدوائها وقدرته على شفائها... والعامّة هم الذين اقتصر علمهم على الشّريعة، ويُسمّى علماؤهم علماء الرسوم" (بهاء الدين العاملي، الكشكول، ط. أعلمي، ج٣، ص ٩٧)، ويقول: "إن علماء الرسوم والعوام لا يفهمون أسرار الحقيقة على ما ينبغي فتضرّهم أو تهلكهم" (بهاء الدين العاملي، الكشكول، ط. دار الكتاب، ص ٧١٩).

إنّ لوم الصوفيّة الضالة المتصنّعين الذين يشكّلون الصوفيّة السلبيّة قد ورد في شعر لسان الغيب "حافظ الشيرازي"، وكذلك نرى المولوي في المثنوي المعنوي يُزكّي الصوفيّة الإيجابيّة المتّسمة بالعشق، وينظر إلى التصوف السلبي نظرة ساخطة، يصحبها تنديدٌ بالصوفيّة اللئيمة المرائية والمدنّسة بالمنكرات في إطار قصص تربويّة عذبة مباشرة أو غير مباشرة، ويسخر بنظرة سلبيّة مليئة بالنقد من سلوكهم وآرائهم (المثنوي المعنوي، الدفتر٥، ص٨٣٨، الدفتر٢، ص٢١٩، ٢٢٥، ٢٢٦)؛ ونراه في "المثنوي المعنوي" يذمّ الصوفيّين المزوّرين المتصنّعين الذين

يشكّلون "الصوفيّة السلبيّة"، مقابل التصوّف الإيجابي المتّسم بالعشق، الذي هو العرفانُ الإسلاميُّ نفسُه . تدلّ على ذلك مبادئه المستقلّة في العرفان الإسلاميّ علاوةً على تمجيدِه في المثنوي المعنوي وكتبه الأخرى المشايخَ الكبار كما في قوله:

عارفان كه جام حقّ نوشيده اند　　رازها دانسته وپوشيده اند
هركه را اسرار حق آموختند　　مهر كردند ودهانش دوختند

(مثنوى معنوى، دفتر٥، ص ٩١٨، ٩٣٦، ١٠٢١)

[العرفاء الذين تذوّقوا كأس الحقّ؛ عَرَفوا الأسرار وأخفوها
الذين تعلموا أسرار الحقيقةِ؛ عَقَلوها وخاطوا شفاههم (وأقفلوا أفواههم)]

في هذا السياق، نرى البهائي يدعو إلى التّوفيق ما بين "الطّريقة" والشّريعة، في وقت أخذ التطرّف والغلوّ من الفقهاء القشريّين والمتصوّفة في عصره خطًّا تصاعديًا ناميًا، وحكم كل فريق على الآخر بالابتعاد عن الجادّة. ويُجمل موقف البهائي من الفقهاء والمتصوّفة العنوان الذي جعله في بداية مثنوي "نان وپنير" [الخبز والجبن]، وهو: "فصل في ذم المنتقدين للحكمة وينكرون لطائفها وسرائرها من الغفلة والظلمة، وفي تفسير من تفقّه ولم يتصوّف فقد تفيْقه، ومن تصوّف ولم يتفقّه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقّق" (كليّيات شيخ بهائي، مقدمة مثنوي "نان وپنير"، ص١٤٤).

التّصوّف والعرفان في شعر الشّيخ البهائي العربي

كان طبيعيًّا أنْ لا يبقى الشيخ البهائي في حدود الظّاهر في تعاطيه مع الدين، وقد غرف أوّلا من نهج الإمام علي (ع)، ومن الصّحيفة السجّاديّة للإمام زين العابدين (ع)، وكانت "مناجاة المحبّين" للإمام السجّاد (ع) من أوائل النصوص التي كان يعلّمها لتلامذته، وهذا النّص من أوائل النصوص العرفانية في التراث الإسلامي، وقد نهل، أيضًا، من ذلك التراث العرفانيّ الفارسي الذي امتدّ قرونًا... واستعار الرموز التي استخدمها العرفانيّون، لا سيّما المولوي كالخمرة والناي والببغاء والفيل وموسى ويوسف (ع)، لكنّنا نلاحظ أنّه وظّفها توظيفًا يخدم المعاني التي يقصدها.

لذلك نرى أنّ عرفان الشيخ البهائي يتجلّى في شعره الفارسي أكثر من تجلّيه في

شعره العربي، وإن كنا نعثر في شعره العربي، لا سيّما الديني منه، على لمحات عرفانيّة، ولقد ارتبط شعره الديني (العربي) برؤية النبي (ص)، أو أهل بيته (ع)، في المنام، حيث ينال عطفهم ويُسقى من محبتهم خمرة صافية طهورًا:

وليلة كان بها طالعي — في ذروة السّعد وأوج الكمال
قصّر طيب الوصال من عمرها — فلم تكن إلا كحلِّ العقال
...سُقيتُ في ظلماتها خمرةً — صافيةً صرفًا طهورًا حلال
وابتهج القلبُ بأهلِ الحمى — وقرَّتِ العينُ بهذا الجمال

يقولُ في "المناجاة والشوق إلى صحبة أصحاب وأرباب الكمال" (من مثنوي "شيروشكر" [الحليب والسكر]، كليات شيخ بهائي، نفيسي، ص ١٤١):

عشاق جمالكَ احترقوا — في بحر صفاتكَ قد غرِقوا
في بابِ نوالك قد وَقفوا — وبغير جمالك ما عُرفوا
نيران الفرقة تحرقهم — أمواج الأدمع تُغرقُهم
من غير زلالك ما شربوا — وبغير جمالك ما طربوا
صدمات جمالك تفنيهم — نفحات وصالك تحييهم
كم قد أحيوا، كم قد ماتوا — عنهم في العشق رواياتُ
طوبى لفقيرٍ رافقهم — بشرى لحزينٍ وافقهم

الصُّورة واضحة ومدلولها العرفانيّ واضحٌ، أيضًا، فالعشّاق هم أصحاب الحال وأرباب الكمال، احترقوا بمحبة الذات العلية وغرقوا في بحر صفات الله عزّوجلّ، يقفون في بابه ويستجدون نواله، حيارى لا يعرفون أنفسهم في طريق طلب النوال، لا تزال ذكرى الوصال تؤرقهم، والوصال معرفةُ الحبيب، وتَعرُّفُ جمالِه الروحي.

الحق يقال: إنّ أجمل أشعاره هي قصائده الخمريّة التي قالها في العشق الإلهي على طريقة المتصّوفة، وهي ملمّعات بعضها عربيّ وبعضها فارسيّ، اعتمد فيها الرمز وأحيانًا القصة على عادة الشعراء الإيرانيين الذين تقدَّموه باعتماد الرّمز في أشعارهم، وهو مثلهم يقصد بالكأس والنديم والمُدام والدف والمطرب والصَّنج والساقي أسرارًا يُعبّر عنها بالإيماء.

الخمر لديه طاهرة تزيل الأدناس، وتفعل في العظام فعل الخمرة النؤاسيّة، إنها شعلة الإيمان المقدّسة، وهي تعبّر عن الفناء في الذات العليا، وما المصطلحات التي استخدمها سوى رموز من سلسلة من المعاني العرفانية.

قال في سوانح سفر الحجاز، من مثنوي "نان وحلوا" (الخبز والحلوى)، تحت عنوان: "في التشوّق إلى الإقلاع عن أدناس دار الغرور، والتشوّق إلى الارتماس في بحر الشراب الطهور (كلّيات شيخ بهائي، ص ١٠٦):

يا نديمي ضاع عمري وانقضى — قم لإدراك زمانٍ قد مضى
واغسل الأدناسَ عنّي بالمُدام — واملأ الأقداح منها يا غلام
أعطني كأسًا من الخمر الطّهور — إنها مفتاحُ أبوابِ السّرور
خلّص الأرواحَ من قيدِ الهموم — أطلقِ الأشباح من أسر الغموم...

وقال تحت عنوان: "في نغمات الجنان من حدبات الرحمن" (كلّيات شيخ بهائي، ص١٣٥):

اشفِ قلبي أيّها السّاقي الرّحيم — بالتي يحيا بها العظمُ الرّميمْ
واسقني كأسًا فقد لاح الصّباح — والثريا غرّبت والديكُ صاحْ
زوّج الصّهباء بالماء الزّلال — واجعلن عقلي لها مهرًا حلالْ
هاتها من غير مهلٍ، يا نديم — خمرةً يحيا بها العظمُ الرميمْ
بنتَ كرم تجعلنّ الشيخ شاب — من يذقْ منها عن الكَوْنين غاب
خمرةٌ من نار موسى نورُها — دَنُّها قلبي وصدري طُورُها

هذه الخمرة المقدّسة تستمد نورها من نار موسى التي يمّمها يقتبس منها في جبل الطّور، فكان له هناك الوحيُ الإلهي، وكلّمه الله تكليما: (نار موسى، الطور، الوادي المقدّس)، من عرائس شعره في غالبية قصائده الدينيّة، يَظهر لنا أنّ خمرة البهائي، في جميع جوانب شعره، إنّما هي خمرة الإيمان المطلق بالحقيقة المطلقة، وإن استخدم التعابير والمعاني المألوفة في شعر الخمرة عند أمثال أبي نواس:

قم ولا تمهَل فما في العمر مهل — لا تصعّب شربَها فالأمرُ سهل
قل لشيخٍ قلبه منها نفور: — لا تخفْ، فالله توّابٌ غفورْ

إنّه يعمد إلى الرمز والإشارة ليعبّر عن فيضه الباطني، ويبدع لنفسه مصطلحاتٍ خاصّةً، لا يدركها إلّا الصّوفي، فيصبح الفقيه المحافظ عارفًا صوفيًّا متحرّرًا، رفيعَ التحليق، يوازي شعرُه شعر كبار المتصوّفين، ويسمو في فضاء الروحانيات، وينسى ما في عالم المعقولات، من صخب وثقل، ثمّ هو يمزج الخمرة بالغناء، وذكر المغنّي وآلات العزف، وذكر الحبيب، ومصرّحا باهتمامه بأشعار العرب وأشعار العجم مستفتحًا بالبيت الأوّل من أبيات المثنوي المعنوي. يبدأ الجزء الأوّل من المثنوي المعنوي بأغنية الناي التي مطلعُها:

بشنو از نی چون حکایت می کند از جدائیها حکایت می کند
کز نیستان تا مرا ببریده اند از نفیرم مرد وزن نالیده اند
سینه خواهم شرحه شرحه از فراق تا بگویم شرح درد اشتیاق
[استمع إلى الناي وهو يحكي ويشكو قصصَ الفراق والشجن
قال: حين جذّوني من منبتي تأوّه من عويلي الرجال والنساء
أبتغي صدرًا تشظّى بالفراق لأبثّه آلامَ الاشتياق]

يرى بعض شرّاح المثنوي أنّ الناي استعارة للمرشد الكامل لمناسبته له في الصورة، فهو يتّسم بصفرة اللون، وشرح الصدر؛ وهذا اللون الخارجي والحال الداخليّة، ليست إلّا حالة العاشق، ويستند مولانا في هذا التشبيه إلى الحديث: "مثل المؤمن كمثلِ المزمار لا يَحسُنُ صوتُه إلّا بخَلاء بطنِه (المثنوي، فروزانفر، ١٣٦٠ش، ص٢٢٢، ومثنوی معنوی، شرح کریم زمانی، ج١، ص٥١)...

يقول البهائيّ (كلّيّات شيخ بهائي، تحقيق سعيد نفيسي، ص ١٣٤ و١٣٥):

يا مغنّي إنّ عندي كلّ غمّ قم وألقِ النايَ فيها بالنّغم
غنّ لي دورًا، فقد دار القدحْ والصّبا قد فاح والقُمري صدح
واذكرن عندي أحاديث الحبيب إنّ عيشي من سواها لا يطيب
واحذرن ذكرى أحاديث الفراق إنّ ذكر البعد ممّا لا يُطاق
روّحن روحي بأشعار العرب كي يتمّ الحظُّ فينا والطرب
وافتتح منها بنظمٍ مستطاب قلتُه في بعض أيّام الشباب

قد صرفنا العمر في قيل وقال　　يا نديمي قم فقد ضاق المجال
ثم أطربني بأشعار العَجَم　　واطرُدَن همًّا على قلبي هجم

وابتدي منها ببيت المثنوي للحكيم المولويّ:

بشنو از نی چون حکایت می کند　از جداییها حکایت می کند

[استمع إلى الناي وهو يحكي　　ويشكو قصصَ الفراق والشجن]

قم وخاطبْني بكلّ الألسنة　　علّ قلبي ينتبه من ذي السّنة
إنهُ في غفلة عن حالهِ　　خائضٌ في قيله مع قالهِ

إنّها غفلة الإنسان عن الحقّ عندما يهتم بأمور الحياة الدنيا، ويدخل في ما يدخل فيه الناس من جدال عقيم، وكلّ ما في هذه الحياة الدنيا قيودٌ وأغلالٌ تشدّ الإنسان نحو الحضيض، ولا تترك له فرصة التحليق في الفضاء الرّحب، بل إنّ فيها أصنامًا يتعلق بها قلبُه الضّعيف:

كلّ آنٍ فهو في قيدٍ جديد　　قائلًا من جهله: هل من مزيد
تائهٌ في الغَيّ قد ضلّ الطريق　　قطّ من سكر الهوى لا يستفيق
عاكفٌ دهرًا على أصنامه　　تنفرُ الكفّار من إسلامه
كم أنادي، وهو لا يُصغي التناد:　　وافؤادي، وافؤادي، وافؤادَ
يا بهائيّ اتخذ قلبًا سواه　　فهو ما معبوده إلّا هواه

وهو يحثّ النديم على عدم تضييع العمر في قيل وقال ونزاع وجدال، وعلى الإسراع في سقيه المدام العذبة التي تهدي إلى خير السّبيل، حتّى أنّه يتشوّق لو سُقي منها بالدّنان لا بالكؤوس؛ إنها تُزيل ما علق في الذهن من العلوم الدنيويّة التي هي "علم الرسوم"، في حين أنّ ما يبقى ليس سوى ما يثمر السعادات الباقية الأخروية:

قد صرفنا العمر في قيل وقال　　يا نديمي قم فقد ضاق المجال
واسقني تلك المدام السلسبيل　　إنها تهدي إلى خير السّبيل
واخلعِ النّعلين يا هذا النديم　　إنها نارٌ أضاءت للكليم
هاتها صهباء من خمر الجنان　　دعْ كؤوسًا واسقينها بالدنان
ضاق وقتُ العمر عن آلاتها　　هاتها من غير عصرٍ هاتها

قم أزل عني بها رسم الهموم إنّ عمري ضاع في علم الرسوم

ثم يصرّح، في الأبيات الفارسيّة التي تلي، أن العلم الرسميّ قيلٌ وقال لا قيمة له، لا يجب أن يكون الفكر إلّا في الحبيب... ويقول على لسان المُغنّي العربي الذي سمعه في طريقه إلى الحجاز يترنّم (كلّيّات شيخ بهائي، تحقيق سعيد نفيسي، ص ١٢٠):

أيها القوم الألى في المدرسه كلّ ما حصّلتموه وسوسه
فكركم إن كان في غير الحبيب ما لكم في النشأة الأخرى نصيب
فاغسلوا، يا قوم، عن لوح الفؤاد كلّ علم ليس يُنجي في المعاد

ويقول في قصيدة الكردي الذي قتل أمّه (الكشكول، ط. دار الكتاب ص ١٤٩):

أيها الساقي أدر كأس المدام واجعلنْ في دَورها عيشي مدام
خلص الأرواح من قيد الهموم أطلق الأشباح من أسر الغموم
فالبهائيّ الحزينُ الممتحن من دواعي النفسِ في أسر المحن

ويقول في قصيدة يجمع فيها رموزه العرفانية: الخمرة المقدسة (رمز المعرفة)، جيران الحمى (رمز لجيران دار الخلود)، الساقي (المرشد والدليل إلى الحق)، الدير (مكان تعاطي الخمرة)، المدارس (المواعظ والعلم الرسمي، الذي سماه العلم المجازي وليس هو الطريق الموصل إلى الحقّ) (كلّيّات شيخ بهائي، ص ١٠٦):

جاء البريدُ مبشرًا من بعد ما طال المدى
بالله خبّرني بما قد قال جيرانُ الحمى
يا أيها الساقي أدرْ كأس المدام فإنّها
مفتاح أبواب النّهي مشكاة أنوار الهدى
قد ذاب قلبي يا بني شوقًا إلى أهل الحمى
هذا الربيع إذا أتى يا شيخُ قلْ حتى متى؟
قم يا غلامُ وقل لنا الدّير أين طريقه
فالقلب ضيّع رشده ومن المدارس ما اهتدى
قل للبهائي الممتحن داوِ الفؤاد من المحنْ

بمدامةٍ أنوارها تجلو عن القلب الصدا

[قصّة الرجل الذي قتل أمّه لاشتهارها بالفساد]

وردت هذه القصّة في المثنوي على النحو التالي: لقد دفع الحنقُ أحدَ الأشخاص إلى أن يقتل أمّه، فقال له أحدهم: إنّك لخبث طينتك، لم تتذكّر ما للأمومة من حقٍّ عليك!

لماذا قتلت أمّك؟ خبّرني، قل لي ماذا صنعتَ أيّها اللئيم الطبع.

فقال القاتل: "لقد فعلتُ أمرًا فيه عارها، فقتلتُها لأنّ في التراب سترًا لها".

فقال: "كان الأفضل أن تقتل ذلك الرجل السيّء"،

فقال القاتل: "سيكون عليّ إذًا أن أقتل كلَّ يومٍ رجلًا، لقد قتلتُها فخلصتُ من دماء الخلق! لقد قطعت عنقها، وذلك خيرٌ من قطع أعناق الخلق!

ويعلّق المولوي على هذه القصّة بقوله: في هذه القصّة الرمزيّة، "الأمّ الخبيثة الطباع، التي شاع فسادها في كلّ ناحية فلتقتلها، فإنّك من أجل هذه النفس الدنيئة، تعتدي في كلّ لحظة على عزيز مثنوي معنوي، منشورات دوستان، الدفتر الثاني، ط٧، البيت ٧٨١)...

هذه القصّة النثرية يأخذها البهائي ويصوغها بالعربيّة في قصيدة يقول فيها (الكشكول، ط. أعلمي، ٧٠):

كان في الأكراد شخصٌ ذو سداد أمّه ذات اشتهارٍ بالفسادْ

لم تخيّبْ من نوالٍ راغبًا لم تنفّرعن وصالٍ طالبًا...

جاءها بعضَ الليالي ذو أمل فاعتراه الإبنُ في ذاك العمل

شقّ بالسكّين فورًا صدرَها في محاقِ الموتِ أخفى بدرَها

مكّن الغيلانَ من أحشائها خلّص الجيرانَ من فحشائها

قالَ بعضُ القومِ من أهلِ الملام لمْ قتلتَ الأمّ يا هذا الغلام؟

كان قتلُ الأمّ أوْلى يا فتى إنّ قتلَ الأمّ شيءٌ ماأتى

قال: يا قومِ اتركوا هذا العِقاب إنّ قتلَ الأمّ أدنى للصّواب

كنت لو أبقيتُها في ما تريد كلَّ يومٍ قاتلًا شخصًا جديد

إنّها لو لمْ تذقْ طعمَ الحُسام كان شغلي دائمًا قتلُ الأنام

في هذه القصّة ترمز الأم إلى النفس الأمّارة بالسوء، والكردي الشجاع هو الإنسان الذي يستطيع الخلاص من قوى النفس الكفور، يقول في آخر القصة بما لا يدعُ مجالًا للتأويل:

أيها المأسور في قيد الذنوب أيها المحروم من سرّ الغيوب
أنت في أسرِ الكلاب العاوية من قوى النفس الكفور الجانية
كلّ صبحٍ مع مساءٍ لا تزال مع دواعي النفس في قيلٍ وقال
كلُّ داعٍ حيّةٌ ذاتُ انتقام قلْ: مع الحيّات ما هذا المقامْ!؟
إن تكن من لسعِ ذي تبغي الخلاص أو ترُم من عضّ هاتيك المناصْ
فاقتل النفس الكفور الجانية قتل كرديٍّ لأُمٍّ زانية

والبهائي الإنسان يبغي الخلاص من دواعي النفس بخمرة قدسية تخلّص الأرواح من قيد الهموم (الكشكول، ط. أعلمي، ج١، ص ٢٢٧):

أيها السّاقي أدِرْ كأس المُدام واجعلن في دورِها عيشي مدام
خلص الأرواح من قيد الهموم أطلقِ الأشباح من أسر الغموم
فالبهائيّ الحزينُ الممتحن من دواعي النفس في أسر المحن

ويعيش الشاعر العارف بصدق روحَ الحديث القدسّي الذي يقول: "إنّ الله سبحانه كان كنزًا مخفيًّا، فأحبّ أن يُعرف، فخلق الخلقَ ودعاهم لعبادته، فاستمتعوا بنعمة الإجابة والمعرفة، ثم كانت المعصية والهبوط من دار الخلود إلى دار الفناء، فكان الحنين إلى الحياة الأولى، وكانت الضراعة إلى الله، وكان الاشتياق والمجاهدة للعودة إلى موطن الحبّ والمعرفة، واتخذت محاولة العودة صيغًا مختلفة من الجهاد والاجتهاد".

فروح الإنسان لطيفة ربّانيّة أودعها خالقها في جسد ترابي. كانت في عالم القدس، وكانت شخصانية ترى وتسمع في عالم الصّورة المتمثّلة التي ظهر بها الخالق لخلقه، وناداهم معلنًا ألوهيته، وأنه ربّهم الأكرم الذي يُريهم ويعلمهم. وذلك النداء هو النداء الأوّل الذي سمعته الأرواح من بارئها في ظهوره الأوّل لها في عالم الصورة.

هـذه الـروح التـي أنعـم الله عليهـا بمعرفتـه فـي عالم القـدس، لا تنفـكّ قلقـة جزعة بعد الهبـوط إلـى عالـم الكون والفسـاد، لأنها في شـوق دائم إلى ما رأته وسـمعته مـن بارئها، متذكّـرة مـا كان مـن نعمـة اللقاء الأوّل، لذلك فهـي لا تزال تحنّ إلى ذلـك اللقاء وتلك المنـازل، فالمنـازل التـي يبكيها الشـاعر رمزٌ لدار الخلـود قبل فراقهـا، ولذلك لا يكفّ عـن الحنيـن إليها، و إلى عهده القديم فيها (كلّيّات شـيخ بهائـي، القصيدة الأولى من مثنوي "نـان وحلوا" [الخبـز والحلوى]):

أيّها اللاهي عن العهد القديم　　أيها السّاهي عن النهج القوّيم
استمع ماذا يقول العندليب　　حيث يروي من أحاديث الحبيب

فالعهـد القديـم هـو ذلـك العهـد الـذي قطعتـه الأرواح على نفسـها فـي العالـم الأول قبـل الهبـوط، نسـيت العهـد الذي قطعتـه للحبيب (الله عـزّوجل)، ولكن سـماع غناء العندليـب، بمـا هـو مظهـر من مظاهـر تجلي الحبيـب وقدرته، يعيـد الروح إلـى ذكرى أيامهـا الأولـى: إذًا هـذا الطائـر، هـو رواية قصّـة الحـيّ القديم (عالـم القدس):

يا بريد الحيّ أخبرني بما　　قاله في حقنا أهل الحمى
هل رضَوا عنا ومالوا للوفا　　أم على الهجر استمرّوا والجفا

التصوّف والعرفان في شعر الشيخ البهائي الفارسي:

منطلِقًـا مـن التصـوّف المتّسـم بالعشـق ومدرسـة العرفـان، نجـد الشـيخ البهائـي يعبّـر فـي شـعره الفارسـيّ والعربيّ الفارسـيّ عـن الصفات الأخـرى المنبثقة من العشـق الحقيقـيّ ومحبّـة الله المتمثّلـة بالزهـد والـورع والصبـر والاسـتقامة والتـوكّل، والرضـا والتسـليم للمشـيئة الإلهيّـة والفقـر والفنـاء فـي الله. يقـول ملمّعًا بالفارسـيّة مـا معناه أنّ العندليـب رسـولُ الحـظ المبـارك، لأنـه سـيخلّص الـروح مـن قيودهـا:

مرحبا ای پیک فرخ فال ما　　مرحبا ای مایهء اقبال ما
مرحبا ای عندلیب خوش نوا　　فارغم کردی ز قید ما سوا

[مرحبًا يا رسول فألنا المبارك؛ مرحبًا يا باعث حظنا السعيد
مرحبًا أيها العندليب الجميل الصوت؛ لقد خلصتني من قيد "ما سوا"]

إنّ سـماع الغناء يحرّك لدى الصوفي الاضطراب والقلق والغم، يذكّره بسـماع النغمة

الأولى: «ألستُ بربّكم» إشارةً إلى العهدِ الذي أخذه الله تعالى على بني الإنسان (الأعراف/١٧٢)، وفي ترجيع الطيروأغانيه ما يفعل في النفس، فقد تنتشي وتتذكر بارئها وموطنَها الأوّل. الطائر المُغنّي هورسول الأرواح، لذلك يُسمّيه هدهد مدينة سبأ، هوحامل الأخبار وهادي الحائرين، حامل الرِّسالة والأمانة، المخبر بصدق عن رؤاه ورؤيته:

ای نواهای تونار مؤصده — زد به هربندم هزار آتشکده
مرحبا ای هدهد شهرسبا — مرحبا ای پیک جانان مرحبا

[غناؤك أيها العندليب نار مؤصدة؛ أشعلتها ألفًا لقيدي موقده
مرحبًا يا هدهد مدينة سبا؛ مرحبًا يا رسول الأرواح مرحبًا]

ورد في المثنوي المعنوي لجلال الدين الرومي قصّة رمزيّة عنوانها "حكاية البقّال والببغاء". استعار البهائي "الببغاء" بطلًا لقصيدة عرفانيّة، لأنّه طائرٌ ناطق:

مرحبا ای طوطی شکرشکن — قل فقد أذهبتَ عن قلبی الحَزَن
بازگواز نجد واز یاران نجد — تا در ودیوار را آری به وجد
بازگواز زمزم و خیف ومِنا — وارهان دل از غم و جان از عنا
بازگواز مسکن ومأوای ما — بازگواز یار بی پروای ما

[مرحبًا أيها الببّغاء الجميل الكلام؛ قلْ فقد أذهبت عن قلبي الحَزَن
أخبرنا من جديد عن نجد وأحباب نجد؛ حتى يغيب الحائط والباب من الوجد
أخبرنا من جديد عن زمزم والخيف ومِنى؛ وأرح القلب من الغم والروح من العنا
أخبرنا من جديد عن مسكننا ومأوانا؛ أخبرنا عن الحبيب الذي لم يراعِ حالنا]

ماذا يعيد هذا الببّغاء على المسامع؟ أحاديث نجد وأحباب نجد، وزمزم والخِيف ومنى، ماذا تعني هذه الأماكن بالنسبة إلى المتصوف؟ أليست هي الأماكن المقدّسة التي خاطب فيها الله عزّوجلّ رسلَه وأنبياءه؟ من هوالحبيب الذي نَقَضَ العهد والميثاق؟ أليس ذلك كنايةً عن انقطاع العهد بين الخالقِ والأرواح؟ وما هو إلا تبرئة الذات من المعصية الأولى، التي كانت سببَ هبوطِ الأرواح إلى الأرض وسكنِها في الأجساد:

از زبان آن نگار تندخو　　از پی تسکین دل حرفی حرفی بگو
یاد ایامی که با ما داشتی　　گاه خشم از ناز و گاهی آشتی
ای خوش آن دوران که گاهی از کرم　　در ره مهر و وفا می زد قدم

[قل كلمة عن لسان ذلك المعشوق الجميل؛ الحاد الطبع لتسكّن قلوبنا ذكرى الأيام التي كانت لنا معه؛ مرة يغضبُ وأخرى يصالحُ من فرط الدّلال ألا ما أُحيلى ذلك العهد، حيث كان حينًا؛ يتكرّم بالسير في طريق الحبّ والوفاء] (كلّيّات شيخ بهائي، ص ١١٩).

ويظلُّ العاشق (الرّوحُ المشتاقة إلى بارئها) في شوق دائم، وخشيةٍ من أن لا تصدُق الرؤيا وتتحقّق، وتخوّفٍ من فقدان الامل في الرؤية، دائمَ التذكر، كمن يستيقظ من حلم سعيد، وكيف يعود إلى الحلم بغير النّوم، حيث تفلت الروح من شهوات اليقظة، وفي الحُلْم يرى الحبيب:

مسدلًا على كتفيه قصبات المسك / مروِّضا العالم كله بنظرة منه

(كلّيّات شيخ بهائي، القصيدة الثانية من مثنوي "نان وحلوا")

فقصبات المسك التي يُشبّه بها الضفائر السوداء، لأن المسكَ أسودُ اللون، إنّما يرمز بها إلى الليل حين يزوره خيالُ الحبيبِ في المنام، وحين يَكْثُرُ الشوقُ والحنينُ والوجدُ؛ كما أنَّ نظرةَ الحبيب المروّضةِ للخلق والعالمِ إنما هي لطفُ الله بالعباد، لأن العالَمَ صُنِعَ من نظرته، ومن وجوده الأوّل انبثق العالم.

ولكنْ هل يصل الحالم إلى الرؤية الفعلية؟

قلت له: متى أراك يا جميل التبختر؟ / قال: نصف الليل، لكنْ في المنام.

وكيف يكون الوصول؟ بترك الدنيا:

يقول البهائي مستعينًا ببيتين للمولوي:

مولوی معنوی در مثنوي　　نکته ی گفت است تا بشنوی
ترکِ دنیا گیر تا سلطان شوی　　ور نه گر چرخی تو سرگردان شوی
زهر دارد در درون دنیا چو مار　　گر چه دارد در برون نقش ونگار
زهر این مار منقّش قاتل است　　می گریزد زو، هر آن کس عاقل است

زين سبب فرمود شاه اوليا آن گزين أولياء و انبيا

"حبُّ الدنيا رأس كلّ خطيئة، وتركُ الدنيا رأس كلّ عبادة" (كلّيّات شيخ بهائي، ص ١٣٠)

[اسمع ما قاله المولوي في المثنوي المعنوي:

اترك الدنيا لتصبح سلطانًا؛ وإلّا فستبقى دولابًا دائم الحركة.

ويستأنف البهائي الكلام بقوله: إنّ باطن الدنيا سمٌّ كسمّ الحيّة، وإن كان ظاهرها نقشًا وزينة، سمّ هذه الحيّة المنقّش قاتل، يهرب منه كلُّ إنسانٍ عاقل، ولهذا قال سيّد الأولياء النبيّ المصطفى المختار: «حبُّ الدنيا رأس كلّ خطيئة، وتركُ الدنيا رأسُ كلّ عبادة»].

ويكون الوصول أيضًا بالتقوى التي هي إقامة التوازن بين الظاهر والباطن.

يقول (كلّيّات شيخ بهائي، ص ١٣٢-١٣٣):

يجب أن يكون الباطن والظاهر واحدًا / حتى تجد طريق الحقّ ولو قليلًا

وبالزهد بكل ما هو أرضي، وبالقناعة:

إنّ جملة سعيِك أيّها الإنسان، للدنيا الدنيّة / فأنت لا تعلم كيف يكون السعيّ للعقبى

وبالزهد بالمناصب التي تذرو الدنيا في مهب الرياح

منصب الدنيا يا حسن الأصل / هو ما يجعل بيدر دينك عرضة للِّرياح

ما هو الزُّهد؟ إنه تجريد القلب من حبّ الغير/ كي لا يمنعك التعلُّق بالدنيا من السّير.

والزُّهد هو الخوف والخشية:

ما يبعدك من خوف الله / هو ما يبعدك من طريق الهدى

إنّ خشية الله دليلٌ على العلم / ألا فاقرأ "إنما يخشى" في القرآن

الخوف والحب معًا يؤدّيان إلى التوبة، وبالتوبة يغسل الساعي إلى الله خطاياه ومعاصيه، ويحصّل النوال والعطايا:

-اغسل معاصيك بالتوبة / واحصل على النوال والعطاء بالتوبة

إذا تخلصت بالتوبة من العذاب الأليم، ووصلت إلى النعيم المقيم، فالتّوبة هي

التـي تصلـح الأحـوال، فلا تقفـل باب العفـو، ولا تيأس مـن رحمة الله، حتـى وإن فاقت خطايـاك العد، فـإنّ عفـو الله لا حدّ له:

- إن فاقت خطاياك العدّ / عفوُ الله وكرمُه يفوق العدّ

بعد التّوبة تأتي محاسبة النفس، التي لا تكون إلا بالعزلة والخلوة

- كل من جاءه توفيق الحقّ دليلً / اختار العزلة ونجا من القيل والقال

ولا يكـون تقويـم النفس وتربيتهـا إلا بالفرائض التـي فرضها الله على عبـاده المؤمنين، عبـادة لله لأنـه أهلٌ للعبـادة، لا طمعًا فـي جنّته ولا خوفًـا من ناره:

إذا كان يُمكـن أن يُقـدّس الله الواحـد الصمـد مـن طريـق التقليـد، نقـول علـى هـذا النحـو إن جمعًـا مـن العوام قد دخلوا الإسـلام؛ لكن إسـلامهم ظاهري، كـي يخرجوا من المجوسـيَّة والوثنيّة.

(كلّيّات شيخ بهائي، مثنوي نان وپنير، ص ٨٠).

...أولئك الذين يعبدون الله من أجل الجنة / ليسوا عشّاقا إنهم طالِبو أجر

هؤلاء الذين يعبدون الله طمعًا ورياءً / يضيفون ذنبًا إلى ميزان سيئاتهم

(كلّيّات شيخ بهائي، فصل الرباعيات، ص ٨٣).

- إنّ الحجر الذي نسجد عليه في صلاتنا رياءً / أخاف إن يُثقِلَ ميزان أعمالنا

(المصـدر نفسـه، فصـل الغزليّـات، ص ٧٥) العبـادة الحقيقيّـة هـي التـي يكـون دورهـا قهـرَ النفس وتربيتَهـا وتقويمَها، فاللقمة المعجونةُ بالعبـادة هي التي تقهر النفس وتقوّمها:

-إنّ نتيجـة اللقمـة المعجونـة بالعبـادة ظاهـرةٌ للعيان / فأنـت تقوّم النفـس وتقهرها بها

(المصدر نفسه، مثنوي نان وحلوا، القصيدة الثامنة).

إنّ الإقبـال الكلـي علـى العبادة ظاهـرًا وباطنًا، هو الـذي يقوّم النفـس ويهذّبها، وهذا ما عنـاه بقوله:

-إذا كنت تطلب حياةً سعيدة / فاقتل بقرةَ نفسك أوّلًا

(المصدر نفسه، القصيدة نفسها).

والسعادة في معرفة الحق في المقام الأوّل، هذه السعادة تحوّلت إلى شقاء عندما حُجبت الرّوح في ظلمة الجسد الكثيف، ولا تُنال السعادة الأولى إلّا بالتخلص من ربقة الجسد الذي هو مستودع مؤقّت للروح، أو هو معتقلٌ لها:

-إلى متى ستظل يا هدهد مدينة سبأ / في الغربة مقيّد القدمين / اجتهد كي تفكَّ قيودَ قدميك / وتطيرَ في الفضاء الرحب (المصدر نفسه، القصيدة العاشرة).

فهدهد مدينة سبأ يرمز هنا إلى الروح (رسول العالم العلوي إلى العالم السفلي) والغربة والقيد هما الجسد الكثيف، وإنما السعادة في التحليق:

-إلى متى ستظلّ يا عندليب عالم القدس / محبًّا لقفصِك وعاشقًا لمصيدتك (كلّيّات شيخ بهائي، فصل الغزليات، ص٧٥).

فعندليب عالم القدس هو الروح، والقفص هو الجسد الكثيف وزخارف الدنيا، والروح التي أنعم الله عليها بمعرفته في عالم القدس، لا تنفكّ قلقة جزعة بعد الهبوط إلى عالم الكون والفساد، وهي في شوق دائم إلى ما رأته وسمعته من بارئها يوم أشهد الخلق على أنفسهم قائلًا: «ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى، شهدنا» [الأعراف/١٧٢]

إلى متى ستظل قانعًا بتربية بدنك، وبالتراب بديلًا من جنّة عدن، تطلّع إلى الملك الذي ينتظرك، واخرج من البئر يا يوسف المصري، لتصبح والي مصر الوجود، وسلطان سرير الشهود. في يوم، "ألستُ" قلتَ: نعم، والآن أنت مُقيّدٌ بسرير "لا"، إلى متى ستظل بعيدًا عن المعارف العقلية، مغرورًا بزخارف عالم الحس لا تذكر وطنك الأصلي، متعلّقا باللهو واللعب والمرح؟ (كلّيّات شيخ بهائي، مثنوي شيروشكر، القصيدة الأولى).

فهو يرمز، هنا، بيوسف إلى الروح، والبئر هو الجسد الترابي الكثيف، ولن تخلص الروح من ربقة الجسد، كما تخلص يوسف من البئر، وأصبح ملك مصر، إلّا حين تتذكر يوم المعرفة الأولى، وتسعى للعودة إليه، إلى الوطن الأصلي، الوطن الأوّل: إقليم النعيم:

يقول بالعربيّة:

أيها المأسور في قيد الذنوب أيها المحروم من سرّ الغيوب

لا تقم في أسر لذات الجسد إنها في "الجيد حبلٌ من مَسَدْ"
قُم توجّه شطر إقليم النعيم واذكرِ الأوطانَ والعهدَ القديمْ

(المصدر نفسه، الأبيات الثلاثة الأولى هي بالعربية في الأصل، وبقية القصيدة بالفارسية)

ويتابع بالفارسيّة:

گنج علم ما ظهر مع ما بطن گفت از ایمان بود حب الوطن
این وطن مصر وعراق وشام نیست این وطن شهریست که آن را نام نیست
از اینکه آن اوطان از دنیا تمام مدح دنیا کی کند خیر الأنام
تو در این اوطان غریبی ای پسر خوبه غربت کرده ی خاکت به سر

[إنّ كنز العلم ما ظهر منه وما بطن؛ قال: إن حبّ الوطن من الإيمان
هذا الوطن ليس مصر أو العراق أو الشام؛ هذا الوطن مدينة لا اسم لها
إنّ هذه الأوطان جميعها من الدنيا؛ فكيف يمدح الدنيا خيرُ الأنام
أنت في هذه الأوطان غريبٌ يا فتى؛ اعتدت الغربة فعيبٌ عليك]

آن قدر در شهر تن مانده اسیر که آن وطن یکباره رفتت از ضمیر
تا به کی ای هدهد شهر سبا در غریبی مانده باشی بسته پا

[بقيتَ كلّ هذه المدّة أسيرَ مدينة الجسد؛ ونسيتَ وطنك الأصليّ وطنَ الروح
حتى متى يا هدهد مدينة سبأ؛ تبقى في الغربة مقيّد القدمين؟]

وكيف تفكُّ الروحُ الأغلالَ التي تشدّها إلى الأرض؟

بالمجاهدة: مجاهدات المحبّة، حيث تنفلت الروح من متطلبات الجسد، وبهذا يصبح الصوفيُّ على باب الطريق إلى العودة، متذكّرًا سعادات المعرفة الأولى، حين يتوصّل إلى السرّ الأزليّ، ويقترب من العلم الحقيقيّ (معرفة الحق) أو العشق الإلهي، وهو الغايةُ التي يجاهدُ من أجلها المحبّون المغرمون بكمال الجمال، ويقطعون في مجاهداتهم مراحل الطريق مرحلةً مرحلةً حتى يبلغوا النهاية.

ما هو العلم الحقيقيّ في نظره:

- العلم الرسمي كله قيل وقال، لا يحصل منه جذبة أو حال

العلم الحقيقيّ هو علم العشق وما عداه تلبيس إبليسَ الشقي
ماذا يبغي العاشق من علم الرسوم وإلام يسعى في طلبه؟
العلم الحقيقي الذي يجب أن تطلبه هو نورُ القلب والصدرُ طورُه
اطلبْ علمًا ليس كتابيًا، علمًا حاليًا وليس مقاليًا
إنّه علم يجدّد لك الروح، إنه علم العشق فاسمع مني
علم معه مفاتيح خزائنِ الوجود، وهو الساري في ذرات الوجود
العلم الرسمي هو خسران كله، فتعلق بالعشق الذي هو العلم الحقيقيّ
علم العشق خال من كيف ولماذا، ينبوعه العليُّ العالي
أيها الساقي اسقني قدحًا من شراب "ألست"
الذي لا يُتعب رِجْلًا ولا يَشِلُّ يدًا

(كلّيّات شيخ بهائي، القصيدة الخامسة من مثنوي شيروشكر).

وبعد أن تشعر الرّوح بالظمأ، وهي مقيّدة في ظلمة الجسد، تتوجه بكلّيّتِها إلى النور العلويّ، فتضعُ قدمًا في عالمٍ آخرَ مختلِفٍ، أفضل وأجمل وأعلى، هو مدينةُ الروح، والعالمُ الجديدُ، مختلِفٌ عن عالَمِ الجسد، فتصبح خالصةً مصفّاةً من تراب طَهور، لا تخاف نارًا ولا بردًا، كلُّ جهة في ذلك العالم الجديد تبدو متعةً للناظرين، تفيض عليها الأنوارُ القدسيّة، فلا ترى إلا حُسْنًا في حُسْنٍ وجمالًا في جمال (كلّيّات شيخ بهائي، القصيدة الأولى من مثنوي نان وپنير).

وهو يرمز إلى المعرفة بالخمرة المقدسة التي تهدي إلى خير السبيل، فليشربْها بكثرة لضيق الوقت، لأنّ ما بقي من العمر لا يكفي للتكفير عمّا مضى منه، وليشربْها من دون عصر (أي من دون تمحيص) لأنّ ما بقي من العمر لم يعد كافيًا للقيل والقال، هذه الخمرة المقدّسة هي التي تزيل التوتر والقلق والهموم، وتريح النفس والفكر من العلوم المجازيّة.

ثمّ يقول بالعربيّة:

قد صرفت العمر في قيل وقال　　يا نديمي قم فقد ضاق المجال
واسقني تلك المُدام السلسبيل　　إنها تهدي إلى خير السّبيل

واخلع النعلين يا هذا النديم — إنّها نارٌ أضاءت للكليم
هاتها صهباءَ من خمر الجنان — دع كؤوسًا واسقِنيها بالدِّنان
ضاقَ وقتُ العمرِ عن آلاتها — هاتِها من غير عصرٍ هاتِها
قمْ أزِل عني بها رسمَ الهموم — إنّ عمري ضاع في علمِ الرسوم
قل لشيخٍ قلبُه منها نفور: — لا تخفْ فالله توّابٌ غفور...

(كلّيّات شيخ بهائي، مثنوي نان وحلوا، القصيدة السادسة)

ثمّ يتساءل: إنْ قيلَ لك أنه لم يبقَ من عمرك سوى سبعةِ أيام، وهذا أمر يقين، أنت في هذه الأيام السبعة ماذا تختار؟ الفلسفة أو النحو أو الطب أو النجوم أو الهندسة أو الرمل أو الأعداد المشؤومة؟

العلم الحقيقي ليس سوى علم العشق، وما بقي من العلوم المجازيّة ليس سوى تلبيس إبليس الشقيّ، وكذلك علم الفقه وعلم تفسير الحديث.

هذه العلوم، لا تؤدّي إلى كشف السر حتى وإن كان تلاميذك مئة من أمثال "الفخر الرازي"، فإنك إن لم تتعلم "العشق الإلهيّ" فلن ينكشفَ لك السرّ ويزولَ الحجاب (المصدر نفسه، القصيدة الثالثة)...

الخمرة والغناء والحبيب هي رموز العرفان الثلاثة التي سطعت في أشعاره، ولقد خلع البهائي على المحبوب الإنسان جميع الصفات التي تجعل منه المعشوق كامل الأوصاف.. وهو يدعو إلى الحب، فمن لا حبيب له لا روح له، والحبُّ وحده يهذّب النفوس، ويعيد إليها فطرة الجمال الأولى:

من لم يولّه بحبّ الوجه القَمَريّ الجميل؛ إمْحِ اسمَه من لوح الإنسانية
القلب الخالي من حب الجميلات المورّدات الخدود؛ شجرةٌ قديمة يابسة الأغصان

والقلب الخالي من المعشوق ليس صدرًا؛ إنه صندوقٌ قديم
كلّ ما في العالم دليلٌ على المعشوق؛ العاشقُ لا يرى فيه غيرَ معشوقه
كلّ ما في العالم هو ليلى؛ نحن لا نرى فيه غيرها
يا بهائيُّ، طريقُ العشقِ لن تقطعَها إلّا بالعشق...

(كلّيّات شيخ بهائي، المثنوي نفسه، القصيدة الثالثة)

مصطلحاتُ التصوّفِ والعرفانِ في شعرِ البهائيّ

قد ورد في شعر البهائي مصطلحات من قبيل:

الخمرة والحبيب: وهما رمزان لواجب الوجود المطلق ولمعرفته، لقد خسرنا الدين والدنيا بنظرة واحدة، ونحن مع ذلك فرحون

أجل هذا من ثمار الحب، وليس من ثمار الحبّ ندامة

نحن لا نريد من الحبيب سوى الحبيب

أما الحورُ العِين والجنّةُ فلك ايّها الزاهدُ بسخاء

رأيتُ في حانوتِ الخمر زاهدًا قد احمرّ وجهه من الخمرة

قلت له: فليبارِكِ الله إسلامَك

عمّر قلوبَنا بكرمِك قبل أن تهرَم هذه القلوب..

ويقول:

أيّها العقلُ الخجلُ من جهلِنا وعدمِ معرفتنا / لقد تعجَّب الكثيرون من حَيْرتنا وتردّدِنا

في حضننا صنمٌ وجبهتُنا في السجود / لقد ضحك الكفرُ من إسلامنا

ويقول:

لقد أوقد شيخ المجوس نار الحديث / رأى إيماني فاحترق قلبه عليّ

أخذ من خرقة الكفر شبه رقعةٍ / وأتى بها فخاطها على كمّ إيماني

الخاتمة

الشعراء العرفاء جميعهم يلتقون في التعبير المتقارب عن الحنين إلى الأصل الإلهي، والشوق إلى الصّفاء الذي يعيد الإنسان إلى الجنّة المفقودة والنعمة المرجوّة، نعمة اللقاء، والغرق في بحر السّر، والتخلص من ربقة الجسد الكثيف؛ وذوق التصوف والعرفان فطريٌّ، وموهبة ربّانية لا تأتي كغيرها من العلوم بالاكتساب والبحث والدرس والجدل... وللشعراء العرفاء مصطلحات وتعابير مجازيّة سطعت في أشعارهم، لا يفهمها أو يتذوقها إلا من تمرّس بقراءة هذا الشعر، وأدرك ما تعنيه

هـذه الرمـوز... هـذه التعابيـر المجازيّـة لا تختـص بالشـعراء الإيرانيين وحدهـم، وإنما هـي في شـعر العرفانيين الهنود، أيضًا، والشـعراء العرب من أمثـال ابن الفارض ومحيي الديـن ابـن عربـي، والسـهروردي وغيرهم.

وقد ورد في شعر المولوي والبهائي مصطلحات ورموز عرفانيّة من قبيل:

الخمـرة المقدسـة (رمـز المعرفـة)، الخمـرة والحبيـب: وهمـا رمـزان لواجـب الوجـود المطلـق ولمعرفته، جيران الحمى (رمز لجيران دار الخلود)، السـاقي (المرشـد والدليل إلـى الحـق)، الديـر (مـكان تعاطـي الخمـرة)، المـدارس (المواعـظ والعلم الرسـمي، أو العلـم المجـازي وليـس هـو الطريـق الموصـل إلى الحـقّ. وعندليـب عالم القـدس، أو هدهـد مدينـة سـبأ يرمـز إلى الـروح (رسـول العالم العلـوي إلى العالـم السـفلي) والغربة والقيـد هما الجسـد الكثيـف، والقفص والمصيدة زخارف الدنيا، والسـعادة تكون في التحليـق. وبيوسـف يرمز إلى الـروح، والبئر هي الجسـد الترابيّ الكثيـف، ولن تخلص الـروح مـن ربقـة الجسـد، كمـا تخلّص يوسـف من البئـر وأصبح ملـك مصـر، إلّا حين تتذكّـر يوم المعرفة الأولى، وتسـعى للعـودة إليه، إلى الوطن الأصلـي، الوطن الأوّل إقليم النعيم.

هـل هنالـك تناقضٌ بيـن وجهي المولـوي، العالِـم المتعبّـد والعـارف المحلّق، وهل هنالـك تناقـض كذلك بين وجهـي البهائي: عالِم الرسـوم (الفقيه المجـدّد)، والعارف الكاره لعلم الرسوم؟ أو أنّ هنالك سعيًا وكدحًا للتوفيق بين الظاهر والباطن، ومجاهدة للارتقـاء مـن حضيض النزاع والجـدال الأرضيّين إلى حضـن الملكوت الأعلى؟

كيف يوفّق الإنسان بين هذين الوجهين؟

إنّه يسعى...

وقـد تكـون أفضـل إجابة عن هذا السـؤال قـول الشـيخ البهائي في مقدمـة مثنوي نان وپنيـر: "مـن تفقّـه ولـم يتصـوّف فقـد تَفيْقـه، ومـن تصـوّف ولـم يتفقّـه فقد تزنـدق، ومن جمـع بينهما فقـد تحقَّق".

الحواشي

١- تعريف الشيخ البهائي

ولد محمد بهاء الدين العاملي في العام ٩٥٣هـ، في قرية إيعاث الواقعة على بعد خمسة كيلومترات من مدينة بعلبك؛ حيث كان والده يدرّس وأستاذَه الشهيد الثاني (الشيخ زين الدين بن نور الدين العاملي الذي قتل في العام ٩٦٥هـ- ١٥٥٧م) الفقهَ على المذاهب الخمسة، وكان في السابعة من عمره حين هاجر مع أبيه إلى إيران، حيث عاش عامّة عمره، لم يغادرْها إلا لمدةٍ قصيرة في العام (٩٩١هـ- ١٥٨٣م) إلى الحج، ومن الحجاز قصد مصر للأخذ عن شيوخها، ومنها توجه إلى القدس الشريف، ثم إلى دمشق فحلب، وعاد إلى إيران في رمضان من العام ٩٩٢ هـ- ١٥٨٥م. تولى الشيخ البهائي مشيخة الإسلام في زمن الشَّاه عبَّاس الكبير (حكم من سنة ٩٩٥ هـ- ١٥٨٧م، حتى العام ١٠٣٨هـ- ١٦٢١م)، وقد ارتبط هذان الاسمان، إلى أن توفي الشيخ في العام ١٠٣٠هـ- ١٦٢١ م، في إصفهان، ومنها نُقل إلى المشهد الرضوي المقدَّس بحسب وصيته، حيث دُفن قرب الحضرة المقدّسة، وقبره مشهور يزوره العامة والخاصة.

كان الشيخ البهائي متعدّد جوانب المعرفة، فيلسوفًا حكيمًا وفقيهًا مفسّرًا وعالمًا رياضيًّا ومهندسًا وأديبًا شاعرًا.

والبهائي أوّل من نَظَمَ الشعر الفارسي على بحر الخبب، كما أنه نظم كثيرًا من شعره على طريقة "الدوبيت" أو "الرباعيّات،" وهكذا أسدى خدمة إلى الثقافتين: العربية والفارسية بتطوير النظم في كلٍّ منهما، باعتماده، في كلٍّ منهما، وزنًا من أوزان الأخرى..

(للتوسّع يرجى العودة إلى كتاب الباحثة "بهاء الدين العاملي، أديبًا وفقيهًا وعالمًا")

٢- تعريف جلال الدين محمّد المولوي البلخي الرومي (٦٠٤ -٦٧٢هـ)

الشاعر العارف والناطق المشهور، أحد العارفين والكُمّل الواصلين. كان جلال الدين ابنَ خمس سنوات حين هاجر من بلخ إلى قونية حوالى ٦٠٩ هـ أو ٦١٠ هـ

بصحبة أبيه "سلطان العلماء بهاء الدين" المعروف ببهاء ولد (٥٤٣ -٦٢٨هـ). حين وصلا إلى نيسابور ودخلا في خدمة الشيخ فريد الدين العطّار (المتوفّى سنة ٦١٨هـ)، أهدى العطّارُ جلالَ الدين كتابَه "أسرار نامه" وأوصى أباه: "بجّل هذا الطفل فسوفَ يُلقي ضرمةً في القلوبِ المحروقةِ في العالم بنفَسِه المحموم" (معصوم علي شاه، طرائق الحقائق، طهران ١٣١٨، ج٢، ص ١٤٠؛ لغت نامه، ج، ص ٢١٧، ١٢٠).

مصادر البحث:

كتب الشيخ البهائيّ العربيّة

الحبل المتين، منشورات مكتبة بصيرتي، قم، إيران. من دون تاريخ مع رسائل الشيخ البهائي.

زبدة الأصول، مخطوط مصور عن مكتبة آل إبراهيم (الدوير- جنوب لبنان).

الكشكول للشيخ البهائي، ط. أعلمي، ٣ أجزاء، الطبعة السادسة.

كلمات المحققين، منشورات مكتبة المفيد، قم، إيران، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

مشرق الشمسين، مخطوط خاص (١٦٩٠م).

الوجيزة في الدراية، الشيخ البهائي- المطبعة الحيدرية ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٢، قم، إيران.

كتب الشيخ البهائي الفارسيّة

أربعين شيخ بهائي، شرح خاتون آبادي، نسخة مصورة عن مخطوطة إسماعيل الخوانساري ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

جامع عباسي، مؤسسة انتشارات فراهاني- تهران- مصور عن مخطوطة ميرزا الشيرازي ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م.

كليات آثار وأشعار شيخ بهائي، تقديم سعيد نفيسي، تهران، ١٣٦١ش [١٩٨٢م].

كتب المولوي الفارسيّة

فيه ما فيه، جلال الدين المولوي، تحقيق فروزانفر، ط٢، طهران ١٣٦٢ش

مثنوى معنوى، جلال الدين المولوي، تحقيق نيكلسون، ط٣، منشورات أمير كبير، طهران ١٣٥٢ش [١٩٧٣م]

مثنوى معنوى، شرح كريم زمانى، منشورات اطلاعات، ط١٢، طهران ١٣٨٢ش [٢٠٠٣م]

المراجع العربيّة

ابن معصوم: سلافة العصر، المكتبة الرضوية، تهران، لا.تا.

الإصفهاني: رياض العلماء وحياض الفضلاء، تحقيق أحمد الحسيني، مكتبة آية الله المرعشي العامة، قم، إيران، لا.تا.

الأمين، محسن: أعيان الشيعة، ت. حسن الأمين، دار التعارف، بيروت، لا.تا.

البحراني: كشكول البحراني، تحقيق محمد صادق الكتبي، النجف ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦.

الخفاجي: ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، طبعة عيسى البابي الحلبي، لا.تا.

الخوانساري: روضات الجنات، ٨ أجزاء مكتبة إسماعيليان، إيران ١٣٩٢هـ.

عباس، دلال: بهاء الدين العاملي، أديبًا فقيهًا وعالمًا، دار الحوار، بيروت، ١٩٩٥؛ المرجع نفسه، دار المؤرخ العربي، بيروت ٢٠١٠.

عباس، دلال: التدين والنفاق بلسان القطة والفأر، ترجمة وتحقيق كتاب "موش وگربه"، دار رياض الريس، بيروت، ١٩٩٥م.

المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار، ط٢، مؤسسة الوفاء، بيروت- لبنان، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣.

مطهري، مرتضى: الإسلام وإيران، تر. محمد هادي اليوسفي، دار التعارف- دار التبليغ (١٤٠٠هـ).

المراجع الفارسيّة

دهخدا، لغت نامه

زرين كوب، عبد الحسين: ارزش ميراث صوفيه، ط٣، ١٣٥٣ش [١٩٧٤م]

صديق، عيسى: تاريخ فرهنگ إيران، ط٢، طهران، ١٣٣٨ش [١٩٥٩م]

غني، قاسم: تاريخ تصوّف در إسلام، طهران ١٣٣٠ش [١٩٥١]، منشورات مكتبة ابن سينا.

نفيسي، سعيد: سرچشمه تصوّف در إيران [منبع التصوف فى أيران]، منشورات مكتبة فروغي، طهران ١٣٤٧ش [١٩٦٨].

العاملي، بهاء الدين (الشيخ البهائي): كلّيّات أشعار وآثار شيخ بهائي، تقديم سعيد نفيسي، منشورات جكامه، طهران١٣٦١ش [١٩٨٢م].

العاملي، بهاء الدين (الشيخ البهائي): كلّيّات أشعار وآثار فارسي شيخ بهائي، تصحيح غلام حسين جواهري، ط٢، منشورات مكتبة محمودي، ، ط٢، ١٣٦٣ش [١٩٨٤].